# حبس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم العلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

ولسوء الحظ حدث انهُ لمَّا عاد رئيس الشماسة المذكور شاهد انقلاباً عظيماً في استعدادات بطريركهِ لان رصيفهُ بطريرك القسطنطينيَّة استاء من مذاكراتهِ مع رومية وما زال يعمل على تغيير افكارهِ حتى استمالهُ الى ما أراد. ولا عجب في ذلك فان بطريرك انطاكية هذا كان سريع التقلب طائش الرأي لانهُ بعد ان وقَّع لاول مرَّة بجمع فلورنسة بواسطة معتمدهِ ايزيدور رئيس اساقفة كياف عاد فحرمهُ في مجمعين من الاساقفة انعقدا في اورشليم والقسطنطينيَّة (١. واذا كان قد سيَّر موسى رئيسَ الشماسة الى رومية فانما قصد من ذلك مرضاة بعض الاساقفة التابعين لهُ واستمالة المقدَّم رزق الله اليهِ فكل ما عملهُ اذًا قد تحرَّى بهِ التسويف واغتنام الوقت

على انهُ تقبل بالاحترام رسالة البابا وبعد ان اطَّلع عليها قال: «سنتذاكر في شأنها مع اخوتنا الاساقفة لان اقصى امانينا ان نرى الاتحاد ناشرًا لواءهُ بين جميع المسيحيين»

وما كان منهُ هذا الكلام في الحقيقة سوى اسلوب ادبي لطيف للتخلُّص من البحث في مسألة الاتحاد. وكان البطريرك المذكور كسائر الاشخاص الطاغين في السن يتردَّد كثيرًا ولا يجزم بشيء. ولمَّا اجتمع الاساقفة لمداولتهِ خطب موسى في الجميع موضحاً المنافع الكثيرة الناجمة عن التقرب الى الغرب فلم يفُز بوطر

وكان من جملة ما ورد في خطابهِ قولهُ: «ان البابا لا يطلب منَّا تضحية ولا شيئاً آخر يضرّ بنا ويجحف بصوالحنا بل يريد ان نحافظ على عاداتنا القديمة وليتورجيتنا وسلسلتنا الاكليريكية. ثم انهُ يبقي لنا الطقوس التي باشرها اجدادنا على ممرّ الاعصار الماضية واللغة التي رفعنا بها في حالتي السرَّاء والضرَّاء أصواتَ الوطن الارضي نحو الوطن

١) المشرق (١٤: ٦١)

السماوي. وليس ذلك فقط بل يريد منّا ان نحفظ الكهنة والاحبار من دمنا وسلالتنا وصلوات لثتنا والاتحاد مع كنيسة انطاكية المقدسة والشركة مع اخواننا في العسر واليسر ولا يُرئس علينا قطعاً روساء غرباء او يفرض استعمال لغة مجهولة وطقوس جديدة غير التي كانت لاجدادنا. وان كانت رومية تريد ان ترى منّا تلامذةً للمسيح اعظم كمالًا فلا تلزمنا بجحود اصلنا ونسيان ماضينا. وغاية ما يطلبهُ منّا بيوس الثاني هو ان نعترف بما اعترف به آباؤنا منذ اعصار طويلة اعني اولية خلفاء بطرس الرسول. على ان بطريركية انطاكية لا تدّعي بمجد الله ما تدعيهِ بطريركية القسطنطينية ولا تلقّب نفسها بالمسكونية فما الداعي اذًا الى اقتناء آثارها وسلوك مناهجها

« واذا كانت رومية لم تولِ علينا في الماضي روساء اجانب فلم تتصرّف معنا مثل هذا التصرُّف بطريركية القسطنطينية لان بطاركة هذه الكنيسة اي كنيسة القسطنطينية لا تهتمّ الّا بمنافع اليونان وصوالحهم وقد ابدت لنا التجارب اننا كلّما حاولنا اقترابًا منهم عاد ذلك بمزيد الضرر على استقلالنا الديني والوطني ومن منكم لا يتذكر البطريرك ثيادورس بلسامون الذي نصبتهُ القسطنطينية على بطريركية انطاكية وما اثار من الحرب الشديدة على ليتورجيّاتنا وعاداتنا (١ أفما كان الاجدر بنا ان نتعظ من هذا الامر وحدهُ ونتخذ الحيطة لانفسنا

« ولا يخفاكم اننا عشنا مع الغرب مدّة اعصار طويلة على اتمّ وفاق وسلام وكانت تلك الايام كما تعلمون افضل ايام تاريخنا بل يمكننا ان نثبت اننا ما انفصلنا قط انفصالًا تامًّا عنهُ او بالحري ان هذا الانفصال لم يعمّ البطريركيّة. وماذا يا ترى غنمنا من وراء الانفصال أَوليس التاريخ افضل شاهد على اننا لم نجنِ غير الخسران. اما ترون ان الانفراد ليس بكافل لسعادة صاحبه بل انهُ عجلةٌ لفقدها. ثم ليس الافضل ان يعتمد المرء على ذي سلطة قويّة لا يريد لهُ غير الخير والسلام. واذا اتحدنا مع الكاثوليك نصير مع محافظتنا على استقلالنا الخاص مرتبطين مع سائر العالم المسيحي وعدّتنا البابويّة بمعاونتها الادبيّة كما يعدنا الغرب كلهُ بعضدهِ ويمنّ علينا بميلهِ وارتياحهِ »

وكان لهذا الكلام الذي فاه بهِ موسى رئيس الشمامسة وقع عظيم في الحاضرين حتى اقتنع بهِ كثيرون من الاساقفة وعضدوهُ لانهُ في القرن الخامس عشر لم يكن من

(١ المشرق (٣: ٢٧١ و ٢٧٢)

وجود لاخويَّة القبر المقدس اليونانيَّة فكانت بطريركيَّة القسطنطينيَّة لا تستطيع ان تتصرَّف بانطاكية كما تشاء. وتريد على مثل ما جرى بعد ذلك مما عاد بالضرر العظيم على الكنيسة الملكيَّة

على ان هذه الكنيسة قد شعرت في أواخر القرن التاسع عشر بما يتهدَّدها من خطر ضياع استقلالها الديني فقامت من ثمَّ تستردهُ شيئاً فشيئاً وطلَّقت حماية الفنار وانكرت وحدة الاصل بين اليونان والملكيَّة (١ وان كان قد حامى عن هذا الامر الاولون لاغراض لا تخفى

غير ان كل الادلَّة التي اتى بها الاساقفة الراغبون في الاتحاد لم تقوَ على اقناع ذاك الشيخ الجبان فكانت غاية ما عملهُ انهُ قرَّر وجوب الشكر للبابا بيوس الثاني على عواطفه الحسنة نحو الكنيسة الشرقيَّة. وكان يظن انهُ بهذه الطريقة يتحاشى الدخول في اساس مسألة الاتحاد دون ان يقطع العلائق مع رومية

وبعد ان قام موسى بما يجب عليه في انطاكية كان اول خاطر خطر لهُ ان يزور شقيقتهُ راحيل التي طال عهد غيابه عنها فشخص الى طرابلس واستصحب شقيقتهُ الصغرى حنة وسار الاثنان الى قصر البترون وكان وصولهما اليه قبل رجوع زين وقرينته ببضع ساعات من جزيرة البحيرة

ولو ان هذا الشقيق الشفيق وصل الى البترون قبل ذاك الوقت باسبوع واحد لادَّى قدومهُ بلا ريب الى تجديد الاحزان على تلك القرينة المهتة. اما الآن وقد وافى بعد امتزاج الزوجين فقد شمل الفرح قصر البترون ولاسيما راحيل التي كانت قد دفنت الماضي في قبر النسيان وآلت ان لا تذكرهُ

وتحدَّث موسى ملياً مع المقدم زين عن مدينة رومية وسائر المدن الايطاليَّة التي زارها. وقد سألهُ المقدم عن البندقيَّة التي كانت سفائنها تأتي في مواقيت معيَّنة الى طرابلس وبيروت (٢ وتقف بعض الاحيان في مياه أنفة البترون

وكان موسى قد مرَّ على مدينة جنوة التي نشأت فيها أسرة لمبرياك قديماً ولدى عودتهِ من اوربَّة عرَّج على قبرس لمشاهدة آخر فرع بقي من اسرته التي هاجرت من

١) الارج الزكي والمشرق (٦: ٦٧٠ و ١١٢٤ الخ)
٢) راجع هبد: تاريخ تجارة الشرق والقلقشندي

سوريَّة الى تلك الجزيرة ولم يلبث المذكور ان توفي بعد سنوات قليلة غير تارك عقبًا (١

وفي مروره على مانتوة لاقى مندوبي الجزائر اليونانيَّة ذاهبين الى رومية لاجل طلب حماية البابا. وتحدث ايضًا مع مندوبي دوق بورغنـدية. ولمَّا علم المذكورون ان موسى رئيس الشمامسة آتٍ من سوريَّة اخذوا يستعلمونهُ عن الاب يوحنا الذي كان اميرهم يشتاق الى سماع اخباره

ولمَّا عاد موسى الى رومية بمعيَّة الحاشية البابويَّة وصل اليها الامير توما احد امراء اليونان من سلالة ملوك باليولوغ وكان فارًّا من وجه اعدائهِ وحاملًا ذخيرة نفيسة وهي رأس اندراوس الرسول (٢ فلمَّا وصل بالذخيرة المذكورة استقبلتها المدينة الازليَّة بما لا مزيد عليهِ من الاحتفالات والتكريمات. وقصـارى القول ان موسى اطلع في كل محلّ مرَّ بهِ على نهضة الكنيسة الكاثوليكيَّة وسطوة البـابويَّة وكان دائمًا يقابل هذا النجاح والتقدم مع ما يراهُ في الكنائس المنفصلة من التأخر. ولم يكن امر كهذا يخفى على بصيرة وقَّادة كبصيرة موسى المذكور

وبعد ايام عزم المذكور على الذهاب الى بشراي لمواجهة المقدم رزق الله وصدّهُ عن ذلك صهرهُ المقدم زين الذي اطلعهُ في الوقت نفسهِ على كل ما جرى من الحوادث في جبل اللكام وفي ناحية بحيرة قدس

## ٢٥

بعد ان مضت ايام قليلة على سفر مقدَّم البترون أخرج الاب يوحنا من محبسهِ بأبهة غير مألوفة

وكانت شواطئ البحيرة في ما مضى هادئة مقفرة لا حركة فيها غير انها تحوَّلت في ذلك اليوم الى عكس ما كانت عليهِ فما كنت ترى غير رجال وخيـل ولا تسمع سوى صراخ وضجيج واوامر تصـدر الى الزعماء مصحوبةً بصليل السلاح وبريق السيوف والرماح والدروع المتلألئة تحت انوار الشمس. وكانت الزوارق والقوارب تتجه من كل انحاء البحيرة والسدّ وقرى قطينة وزمارية وكفرعيدة ذاهبة الى تلك الجزيرة الصغيرة

(١ دوكانج: كتاب الأسر
(٢ باستور

والتفت الاب يوحنا من نافذة كوخهِ فوقع بصرهُ الضعيف على جمع غفير يتاوج على ضفاف البحيرة وقوارب عديدة سائرة نحو الجزيرة بركابها فرابتهُ هذه الحركة وقلق مما شاهد من السلاح والجنود واخذ يحدث نفسهُ قائلاً: « أترى هم آتون لينتزعوني من سجني هذا الى سجن آخر ؟ وهل تردد راحيل والاب جرمانوس ايقظ ظنون جوسلين فرأى ان حالتي في منفاي لم تزل خفيفة محتملة فجزم بابعادي الى حيث اذوق مرارة اشد ؟» وتذكر اذ ذاك بارتعاش ما قاسى من الجهد والمشقة في سفره من دير الصليب الى بحيرة قدس وما تكبد من فظاظة البدو الذين ساقوهُ اليها

وبينما هو في هذه الافكار كانت القوارب قد وصلت الى شاطئ الجزيرة وفي مقدمتها زورق خرج منهُ اثنان اول الجميع وكان احدهما طويل القامة شاكَّ السلاح يدلُّ ظاهرهُ على انهُ زعيم تلك الجماعة نظراً لما كان يحفُّ بهِ من الاكرام والاعتبار . واما الآخر فكان اكبر سناً ومتردياً بملابس راهب . وما كان غير قليل حتى وصل المذكوران الى كوخ الاب يوحنا فبادر الاول وقبَّل يديه باحترام وانطرح الثاني عليهِ فعانقهُ بانعطاف وكان الاول الامير رزق الله والثاني فرا غريغون

واول ما وقع بصر الامير رزق الله على ذاك الرجل البار خاطبهُ قائلاً:

نحمد الله اننا التقينا بك في آخر الامر

فقال ذلك الشيخ الجليل: ان الله سبحانهُ لم يسمح بموتي قبل ان يعزّيني بان ابارك ولدًا احبُّهُ وأعانق رصيفاً قد طالما صحبتهُ في سبيل خدمة الخلاص

قال هذه الكلمات والتفت الى فرا غريغون وعانقهُ طويلاً وهو يذرف الدمع فعمل هذا المشهد المؤثر في كل من حضرهُ. ولاسيما الامير رزق الله الذي لم يكن يقوى على تحويل بصرهِ عن وجه معلمهِ وغارس العواطف الشريفة فيهِ . وكانت الاوجاع التي قاساها الحبيس في السنتين الاخيرتين من حياتهِ قد خلّفت فيهِ آثاراً تدلُّ على ما كان تأثيرها عليهِ فان لحيتهُ كانت قد ابيضَّت كالثلج ومحيَّاهُ قد استطال ودقَّ وعينيهِ قد غارتا تحت الحاجب ورجليهِ قد خارتا فصار اذا مشى يتركأ على العصا . غير ان صوتهُ لم يتغيَّر وظلَّ محافظاً على ما فيهِ من لطف وحلاوة وكان اذا تكلَّم أشعر دائماً بما يكنُّهُ ذاك الشيخ الجليل من نفس عالية وعواطف سامية

ولمَّا نظرهُ المقدم رزق الله على هذه الحال فاضت الدموع من مقلتيهِ ولم يستطع

كتمان ما جاش في صدره من الغضب على الذين عذبوا هذا الاب القديس فقال:

يا لهم من برابرة كيف اساؤوا معاملتك. غير ان الاب يوحنا تظاهر بانهُ لم يسمع ما قيل لهُ فاستأنف الكلام ممسكاً بيد فرا غريفون والامير رزق فقال:

الشكر لكما كل الشكر اذ اتيتما لتغمضا عينَيْ هذا المنفيّ المسكين. الان استطيع ان اموت مطمئناً لاني رأيتكما وضممتكما بين ذراعيَّ. اللهمّ انك اوليتني سعادة عظيمة لم اكن استحقها

فقال الامير رزق الله: لا تتكلّم هكذا يا ابي لان الله انما جمعنا حتى لا يفرّق بيننا ولقد علمتُ بكل ما قاسيتهُ من الكمد والاوجاع ولمتُ نفسي كل اللوم على كوني لم اعرف كيف اتلافى كلّ ما حلَّ بك ولست نادماً الّا على انك صددتني عن إزالة غضبي بالمنافق جوسلين ولا ريب انك تتذكر ذلك. غير اني عازم على تعويض الشرّ الذي لم استطع تداركهُ. واعلم ان محبّتنا البنويّة تعرف كيف تُنسيك مرارة الزمن الماضي. وفي الختام اقول لك ان يد الله العادل قد ثقلت على من كان يضطهدك

— أعلى جوسلين ؟ قل يا ابني هل حدث لهُ سوء ؟.

— لم يَعد بين الاحياء.

— هل مات ؟ وكيف ؟ هل عرف ضلالتهُ ؟ وهل استغفر الله والبشر ؟. ولا ريب انك يا فرا غريفون كنتَ حاضرًا فاخبرني هل عاند ما بذلتَ لهُ من النصائح حتى يُنيب الى الله

فقال فرا غريفون: انهُ مات كما عاش دون ان يبدي أسفًا على الماضي ولقد حاولت كثيرًا ان أغيّر قلبهُ الجاسي فذهب السعي باطلًا

وهنا قال الامير رزق الله: انَّ المشفقة قضت اخيرًا قضاء عادلًا على حياة مشحونة بالمآثم والجرائم

فقال الحبيس متوجعاً: ماذا تقول يا ابني هل مات جوسلين دون ان يندم على اساءاته ؟ ثم خفض صوتهُ واخذ يقول في سره: ولكن كم من مرة قدَّمت اوجاعي بل قدَّمت حياتي ايضاً لاستدرّ لهُ نعمة الاعتراف بذنبه قبل ان يقف امام منبر الديان الرهيب. كلا لا اظن انَّ عملي ذهب باطلًا ويلزمني ان اصلّي وابتهل من اجل هذا الضال الشقي

(الباقي للآتي)